الأضـــداد

للأستاذ الدكتور منصور فهمى كاتب سر المجمع

١ — المصادر — ٢ — تعريف الأضـداد واختلاف الآراء فى وقوعها فى اللغة العربية — ٣ — تقدير هذه الآراء — ٤ — الأصل الطبيعى للأضداد ونشأتها : آراء علماء العرب وآراء المستشرقين — ٥ — مصير الأضداد .

١ — مصادر البحث

ألف كثير من أئمة اللغة فى الأضداد . وقد ذكر جلال الدين السيوطى منهم فى كتابه "المزهر فى علوم اللغة" قطربا ، والتوّزى ، وأبا بكر بن الأنبارى ، وأبا البركات بن الأنبارى ، وابن الدهان ، والصغانى ، وذكر أن لابن دَرَسْتَوَيه[1] تأليفا فى ذلك[2].

ويذكر بروكلمان Brockelmann فى المجلد الأول من كتابه Geschichte der Arab : Litteratur كتبا تتعلق بهذا الموضوع نفسه ففى (ص ١٠٣) يذكر كتاب الأضـداد لقطرب (مخطوطات ، مكتبة برلين ، رقم ٧٠٩١ من فهـرس أهلوارت Ahlwardt وفى (ص ١٠٥) كتاب الأضـــداد للأصمعى (مخطوطات ، فينا ، فهرس فلوجل Kat. Hof-Bibl. Wien رقم ٦/٣٥٥)

---

(١) ضبط فى ابن خلكان بضم الدال والراء والتاء وسكون الواو عن السمعانى ، كما ضبط بفتح الدال والراء والواو عن ابن ماكولا .

(٢) السيوطى فى المزهر ، طبعة الرافعى ج ١ ص ٢٣٤ — ٢٣٥

وفى (ص ١١٧) الأضداد لابن السكيت (نفس الفهرس المتقدم والرقم)
وفى (ص ٣٦١) الأضداد للحسن بن محمد بن الحسن الصغانى (برلين، رقم ٧٠٩٢ من فهرس أهلوارت) وفى (ص ٥١٤) ذكر بروكلمان ما ذكره المبرد لعبد الله بن محمد ابن هارون التَّوَّزى .

وقد ورد فى بعض كتب اللغة المطبوعة فصول فى الأضداد ، نذكر من أهمها المخصص لابن سيده ، والمزهر للسيوطى ، وفقه اللغة للثعالبى . كما ورد فى كتب الفقه والأصول أبواب عن المشترك ، وما يتصل به من الأضداد . الا أن أنفس ما وصل الينا من تصانيف العرب فى هذا الموضوع : كتاب الأضداد لأبى بكر بن الأنبارىّ .

ونجد لبعض علماء العرب المحدثين بحوثا فى هذا الموضوع ، من أهمها ما أثبته الشيخ محمد الخضرى بك فى كتاب " الأصول " عن المشترك ، وما ألقاه العلامة المحقق السيد محمد طاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكى بالديار التونسية ، فى مؤتمر اللغة والآداب العربية ، الذى انعقد فى تونس عام ١٣٥٠ هـ[1]

أما أشهر من كتب فى هذا الموضوع من المستشرقين ، فهم العلامة الألمانى (ت . م . رد سلوب) Th.M. Redslob إذ ألف رسالة نشرها عام ١٨٧٣ فى جوتنجن بعنوان :

(Die arabischen Wörer mit en tgegengesetzten Bedeutungen)

---

(١) نشرت محاضرته فى مجلة الهداية الإسلامية ، التى تصدر فى القاهرة (أنظر المجلد السادس ج ٦ و ٧ عام ١٣٥٢ — ١٣٥٣ هـ)

والعلامة فردريك جيزه F. Giese الذى كتب بحثا فى الأضداد ، جمع فيه ما ورد من ألفاظ الأضداد فى الشعر الجاهلى ، وعنوانه :

(Untersuchungen über die Addâd auf Grund von Stellen in Altarabischen Dichtern)

ونشره فى برلين عام ١٨٩٤ ، ومنهم كذلك العلامة "ج" فيل G. Weil الذى كتب فصلا جامعا فى دائرة المعارف الإسلامية (انظر مادة أضداد Addâd) .

وكتب آخرون فصولا تتصل بهذا الموضوع منهم (بجست Leguest) الذي نشرفى باريس عام١٨٥٨ بحثا بعنوان : (Etude sur les formations des racines semitiques

وهناك مناقشات تتصل بالأضداد ظهرت فى مجلة Journ. Roy. As. Soc. عام ١٨٩٥ ؛ ص ٢٢٣ وما بعدها ، وفى مجله Asiatic Quarterly Rev. المجموعة الجديدة ، ج ٩، ١٨٩٥، ص٢٤٢

ويمكن الانتفاع فى الجملة بما كتبه علماء الأفرنج فى طبائع الشعوب المتأخرة، ونخص بالذكر كتب العلامة الفرنسى ليفى برول الأستاذ بجامعة باريس ، وكذلك كتب علم النفس المطولة ، إذ تتعرض بعض فصولها لما يفيد فى هذا الموضوع .

هذه أهم المصادر التى أتيح لنا ذكرها لمن يريد معالجة موضوع الأضداد .

٢ — تعريف الأضداد

واختلاف الآراء فى وقوعها فى اللغة العربية

الأضداد اصطلاح أطلقه فقهاء اللغة العربية على الألفاظ التى يدل كل منها على معنيين متقابلين "متضادين" . وقد جرى العلماء على التعبير بصيغة الجمع فى أكثر الأحيان ، فهم يقولون عادة عرف كذا "من الأضداد" على أنهم

استعملوا كذلك صيغة المفرد ، فقالوا مثلا : " البســل : الحرام والحلال ، ضد " (١) وكلمة " ضد " نفسها — على ما ورد فى الكتب — من الأضداد : لأن معناها المثل والمخـالف (٢) ، قال ابن الأنبارى : " وهذا عندى قول شاذ لا يعوّل عليه "(٣) ، فاذا لم يصح قول ابن الأنبارى — وهو صحيح فيما نعتقد — فيجب أن نأخذ هنا لفظ " الضد " بالمعنى الذى يفيد المخالفة ؛ لأن الاصطلاح العلمى إنما ينصرف لهذا المعنى وحده .

والأضداد نوع من " المشترك " واللفظ المشترك هو الذى يشترك فيه معنيان أو أكثر ، كالعين مثلا ، فهو يطلق على البـاصرة ، وعلى الجاسوس ، وعلى نبع المـاء . قال إلكيا : "المشترك يقع على شيئين ضدين ، وعلى مختلفين غير ضدين ، فما يقع على الضدين كالجون والجلل ، وما يقع على مختلفين غير ضدين كالعين"(٤)

ويجعل المبرد الأضداد نوعا من المشترك حين يقول فى كتاب (ما اتفق لفظه واختلف معنـاه) : " من كلام العرب اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ..... فأما اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، فكقولك وجدت شيئا : إذا أردت وِجدان الضالة ، ووجدت على الرجل : من الموجدة ، ووجدت زيدا كريمـا : أى علمت ..... وهذا الضرب كثير جدا ؛ ومنه ما يقع على شئين متضادين كقولهم (جَلَل) : للكبير والصغير . . . و (الجون) : للأسود والأبيض . . . و (الرجاء) : للرغبة والخوف . وهو أيضا كثير" (٥)

---

(١) الفيروز ابادى فى القاموس ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ ، مادة بسل .

(٢) ابن الأنبارى فى الأضداد ، ص ١٦

(٣) المصدر المتقدم ، ص ١٦ س ١٨

(٤) السيوطى فى المزهر ، ج ١ ص ٢٢٨ طبعة الرافعى .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٩

نخلص من هذا بأن الكلام على المشترك يشمل الكلام على الأضداد . وقد اختلف علماء اللغة فى وقوع المشترك فى لغة العرب ، فذهب قوم إلى وقوعه كأنه فى مألوف القوانين اللغوية ، وذلك لأن المعانى عندهم غير متناهية ، والألفاظ متناهية ، فإذا وزِّع لزم الاشتراك . وذهب بعضهم إلى أن الاشتراك أغلب ، قال : "لأن الحروف بأسرها مشتركة بشهادة النحاة ، والأفعال الماضية مشتركة بين الخبر والدعاء ، والمضارع كذلك ، وهو أيضا مشترك بين الحال والاستقبال ، والأسماء كثير فيها الاشتراك ، فاذا ضممناها الى قسمى الحروف والأفعال ، كان الاشتراك أغلب" (١)

ويثبت ابن فارس وقوع الأضداد فى اللغة العربية حين يقول : " من سنن العرب فى الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد ، نحو الجون للأسود، والجون للأبيض" (٢)

ويثبتها كذلك ابن سيده عند ما يناقش شيخا له أنكرها ، فيقول : " هل يجوز عندك أن تجئ لفظتان فى اللغة متفقتان لمعنيين مختلفين ؟ (يشير إلى المشترك) فلا يخلو فى ذلك أن يجوِّزه أو يمنعه ، فان منعه ورده ، صار إلى رد ما يعلم وجوده وقبول العلماء له ، ومنع ماثبت جوازه وشُبِّهت عليه الألفاظ، فانها أكثر من أن تحصى وتحصر، نحو (وجدت) الذى يراد به العلم ، والوجدان ، والغضب ؛ " وجلست " الذى هو خلاف قمت ، " وجلست " الذى هو بمعنى أتيت نجدا (ونجد يقال لها جَلس) . فاذا لم يكن سبيل الى المنع من هذا، ثبت جواز اللفظة الواحدة للشئ وخلافه. وإذا جاز وقوع اللفظة الواحدة للشىء وخلافه، جاز وقوعها للشئ وضده ؛ إذ الضد ضرب من الخلاف وإن لم يكن كل خلاف ضدا" (٣)

---

(١) السيوطى فى المزهر ج ١ ، ص ٢١٧

(٢) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٨

(٣) ابن سيده : المخصص ، ج ١٣ ، ص ٢٥٩

ومن الأئمة الذين أثبتوا الأضـداد باثباتهم المشترك غير من ذكرنا طرفا من آرائه : ابن الأعرابى وأبو عبيد وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصـارى والخليل بن أحمد وسيبويه وابن الأنبـارى وابن دريد [١] والسيوطى . والمؤلفات التى بقيت لبعض هؤلاء العلماء تدلنا على أنهم جمعوا من الأضداد عددا كبيرا ، فقد أحصى كل من السيوطى وابن سيده من الأضداد ما نيّف على المئة ، وأحصى ابن الأنبارى ما زاد على الأربع مئة .

وكما أننا نجد من أثبت الأضداد و بلغ بها إلى هذا العدد الكبير، نجد من الأئمة من أنكر وجودها ، وأبطلها إبطالا تاما . وأظهر هؤلاء ابن دَرَسْتَويه [٢] ، فقد ذهب الى جحد الأضـداد جميعها ، وكتب فى ذلك تأليفا خاصا أسماه " إبطال الأضداد " وإنا لنأسف لضياع ذلك المؤلف ، ولعدم وقوفنا على الطريقة التى سلكها هذا العالم اللغوى الكبير فى نقض الأضداد و إبطالها .

ور وى ابن سيده الأندلسى أن أحد شيوخه كان كذلك " ينكر الأضداد التى حكاها أهل اللغة ، وأن تكون لفظة واحدة لشئ وضده " [٣]

٣ — تقدير هذه الآراء

ويخيل إلينا أن الفريقين أسرفا فيما ذهبا اليه من المبالغة فى إثبات الأضداد أو فى إنكارها إنكارا تاما . فأمـا الذين أبطلوا الأضداد ، فعندنا أنهم غلوا فيما ذهبوا إليه ، لوجود بعض ألفاظ تشهد على التضاد ، فيما بين أيدينا من كتب اللغة ، حتى إن ابن درستو يه نفسه — وهو من المنكرين — قرر وجود النادر من تلك الألفاظ ، واعتذر عن ذلك بقوله : "اللغة موضوعة للإبانة ، والمشترك تعمية ،

---

(١) ابن عاشور : الألفاظ المشتركة ، مجلة الهداية الإسلامية ، المجلد السادس ج ٦ ص ٣٠٣

(٢) السيوطى : المزهر ، ج ١ ، ص ١٩١ ، س ١٦

(٣) ابن سيده : المخصص ، ج ١٣ ، ص ٢٥٩ ، س ٨

ولكن قد جاء منه النادر لعال، فيتوهم من لا يعرف العِلل أن اللفظ وضع لمعنيين، والسماع فى ذلك صحيح عن العرب ، و إنما يجئ ذلك من لغتين ، أو لحذف واختصار وقع فى الكلام ، حتى اشتبه اللفظان ، وخفى ذلك على السامع ، فتأول فيه الخطأ " (١) .

وأما الذين أثبتوا الأضداد و بالغوا فى عددها على نحو ما بينا ، فقد أنحرفوا عن جادة الصواب . ذلك لأن هناك كثيرا جدا من الألفاظ حُشرت حشرا بين الأضداد ، بعد أن زيد فى معناها زيادة لم تكن فى أصل الوضع إن كان اللفظ مشتقا ، ولا استعماله المألوف المأخوذ به إن كان غير مشتق ، أو لغير ذلك من الأسباب. ومن الممكن — على رأى المستشرق (رد سلوب Redslob) — إسقاط كثير من الألفاظ التى حشرها أولئك العلماء فى زمرة الأضداد ، فهو يرى :

(١) أن ما ذكر من الأضداد يعوز أكثره الشواهد القوية .

(٢) أنه لا يجوز الاعتماد فى إثبات التضاد على موضع اللفظ من الكلم دون الاعتماد على الأصل اللغوى لهذا اللفظ ، ومثال ذلك : قول العرب « لم أضرب عبد الله ، ولم يضربنى زيد» ، يحتمل معنيين متضادين : أحدهما أن يكون ضربى عبد الله مجحودا ؛ وكذلك ضرب زيد إياى ، يراد به ما كان ذا وما كان ذا . والوجه الآخر أن يكون الفعل الأول والثانى صحيحين مثبتين ، والتقدير لم أضرب عبد الله حتى ضربنى زيد ، فوقع ضربى لعبد الله لما وقع بى ضرب زيد (٢) .

---

(١) ابن عاشور : الألفاظ المشتركة ، مجلة الهداية الإسلامية ، المجلد السادس ، ج ٦ ص ٣٠٤ .

(٢) السيوطى فى المزهر جـ ١ ، ص ٢١٧ .

(٣) يرى (رد سلوب) أن يخرج الحروف من الأضداد ، وأن يخرج كذلك الصيغ الفعلية المختلفة للفعل الواحد ، إذا دلت كل صيغة منها على زمانين مختلفين مثل " كان " التى تدل على الماضى ، وكذلك على المستقبل، كما فى قول الشاعر :

فأدركت من قد كان قبلى ولم أدع لمن كان بعدى فى القصائد مصنعا

وأن يخرج كذلك أسماء الأعلام مثل إسحق و يعقوب وأيوب التى أعتبرها علماء اللغة من الأضداد ، لوجود معان أخرى لها .

(٤) ويخرج عددا كبيرا من الألفاظ التى تضاف الى الأضداد لاشتراك الحالية والمحلية فيها ، مثل " كأس" التى تدل على الإناء المعروف وعلى ما يملؤه .

وكذلك يخرج كل الصيغ التى على وزن فاعل وتدل أحيانا على المفعول مثل آمن وراض وواسق ، وأيضا مايدل على المفعول والفاعل مثل أمين .

وكذلك الأفعال التى تشعر صيغتها المجردة بمعنى من معانى التعدية ، مثل زال التى تكون بمعنى ذهب وأذهب .

(٥) ويخرج كذلك من الأضداد ألفاظ التهكم والاستهزاء مثل " ياعاقل" التى تقال للمعتوه ،وأيضا ألفاظ التفاؤل مثل "ياسالم " التى تقال تفاؤلا للمريض.

(٦) و يقول (رد سلوب) إن أبلغ ما وصل إليه التكلف فى استنباط الأضداد ذهاب بعض العلماء إلى أن (التاعة) مثلا — وهى ما جرى من الماء وما ارتفع من الوادى — من الأضداد ، ومعتمد ذلك أن الماء يجرى من عل ، وأن المرتفع من الوادى يصعد من أسفل إلى أعلى . ومثل هذا يمكن أن يقال فى بعض الأفعال مثل حَلَّقَ ماءُ الركية : إذا تسفل ونزل ، وحلق الطائر : إذا علا .

ذلك مجمل آراء (رد سلوب) التى دعته إلى إخراج عدد كبير جدا من الألفاظ المحمولة على التضاد حملا ، وقد يصح أن نضيف إليها :

١ — أن بعض علماء اللغة والنحو تساهل فى تكثير معانى اللفظ الواحد ، بحسب اختلاف مؤدى المعنى باختلاف المواقع مثل " فوق " . قال فى أدب الكاتب : (" فوق" تكون بمعنى دون ، وذلك كقوله تعالى : " إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها " . أى فما دونها ، مع ظهور أن معنى (الدون) هنا نشأ من كون الفوقية على البعوضة لا تعقل إلا فى تفاوت فى الحقارة) .

والحق أن (فوق) هذه لا تدل إلا على معنى (فوق) لولا أن بعض المفسرين أراد أن يتأول تأولا ، فيخرجها لمناسبة ورودها فى الآية الكريمة إلى معنى " دون" وعندنا أنه إذا ظلت على معناها المعروف فان تفسير الآية يظل مستقيما ، والمعنى : ما يفوق الذبابة حقارة . ومثل هـذا قوله تعالى : (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) : فسروا (وراء) بمعنى أمام ، ولو فسرت وراء بمعناها الأصلى كان معنى الآية : كان من خلفهم ملك يتعقب أصحاب السفن فيغتصب سفنهم .

٢ — ويصح أن نخرج من الأضداد كذلك ما حرص على ذكره بعض علماء اللغة كابن الأنبارى وغيره ، من غير أن يدققوا فى تطوراته الصرفية : فقد يأتى بعض المشتركات وبعض الأضداد من عوارض تصريفية بحتة ، وذلك بأن تؤدى القواعد الصرفية إلى أن تتفق لفظتان متقاربتان فى صيغة صرفية واحدة ، فينشأ عن ذلك لبس فى معنى هذه الصيغة المشتركة ، يؤدى الى إضافتها إلى باب الأضداد ، وهو غير صحيح .

من أمثلة ذلك لفظ (فُـلْك) الذى يستعمل للمفرد والجمع ، معا ، بضم اللام للمفرد ، وسكونها للجمع ، ثم إن العرب يتبعون حركة العين لحركة اللام ، وقد يخففون العين بالسكون فيهما ، فاستويا عند الاستعمال فى التقادير كلها .

ومنها لفظة "مرتد" التى تقال للذى يرتد الشىء ... وللشىء يُرتد ، ومثل هذا اللفظ يجب أن يخرج من عداد الأضـداد : لاختلاف الأصل الذى اشتق منه ، قال ابن الأنبارى : " إذا كان للفاعل فأصله مُرْتَدِد ، فاستثقلوا الجمع بين حرفين

متحركين من جنس واحد ، فأسكنوا الدال الأولى ، وادغموها فى التى بعدها ، وإذا كان للفعول فأصله (مُرْتَدَد) ففعلوا مثل مافعلوا فى الباب الأول ، واستوى اللفظان من أجل الإدغام "(١) .

ومن هذا القبيل لفظ "المزداد"(٢) وغيرها ، من نحو مختار وممتار ومشتار ومبتاع ومصطاد .

٣ — هناك من الألفاظ ما نقل عن معناه الأصلى إلى معنى آخر مجازى، لضرورة البلاغة أو التأدب أو غيرذلك ، فاعتبروها لذلك من الأضداد، وهى ليست منها ، كما فى قوله تعالى "نسو الله فنسيهم" . يقول المفسرون : إن معناه ليس أن الله تعالى غفل عنهم سهوا وهو المعنى الأصلى للنسيان ، وإنما تركهم عامدا ، لأن الله لايجوز عليه السهو .

٤ — إذا أنعمنا النظر فيما أوردوه من ألفاظ الأضداد ، فاننا نجد كثيرا منها من المشترك، وليس من الأضداد، وهذه — كما تبينا من قبل — نوع من المشترك أخص منه . ومثالها : المعصر والحَزَوَّر والروح والقلب ، وأفاد يفيد ، وزنأ ، ونسل ... الخ .

فاذا نحن حذفنا من قائمة الأضداد التى ذكرها ابن الأنبارى وأضرابه — ممن بالغوا فى إثبات التضاد — ما يمكن أن يحذف فى ضوء هذه الملاحظات التى روينا بعضها عن المستشرق رد سلوب ، فربما لايبقى من ألفاظ الأضداد إلا نحو العشرين لفظا يصح أن تكون قد نشأت نشأة طبيعية (كما ذهب إلى ذلك المستشرق جيز (Giese) بعد دراسته للشعر الجاهلى) لسبب من الأسباب التى سنأتى على ذكرها فيما بعد .

---

(١) ابن الانبارى : الأضداد ، ص ٢٦٣

(٢) المصدر نفسه ، ٢٦٤

ولا يستغرب في لغة من اللغات أن نجد قليلا من الألفاظ التى تقبل معنى التضاد ، ولكن ليس من المقبول عندنا أن يذهب علماء اللغة إلى مثل ما ذهبوا اليه من جمع المئين منها .

٤ — الأصل الطبيعى للأضداد ونشأتها

آراء علماء العرب وآراء المستشرقين

كيف نشأت الأضداد ؟ وما الأسباب التى أدت اليها ؟

لقد حاول بعض علماء العرب تفسير أصل هذه الظاهرة اللغوية ، فاختلفوا فيها إلى جملة مذاهب :

فمنهم ابن فارس الذى يرى أن أصل الأضداد كأصل الألفاظ الأخرى ، وضعها العرب بالوضع الأول للدلالة على المعنيين المتضادين. قال السيوطى : قال ابن فارس فى فقه اللغة : من سنن العرب فى الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد ، نحو الجون للأسود ، والجون للأبيض "(١) .

ومنهم من يرى أن ألفاظ الأضداد لم يضعها العرب للمعانى المتضادة بالوضع الأول ، وإنما استعملتها بعض القبائل فى معنى من معانيها ، واستعملتها قبائل أخرى فى المعنى المضاد له ، ثم امتزجت اللهجات ، فظهرت الأضداد فى اللغة(٢) .

وذكر أبو على الفارسى أن "الاستعارة" كان لها شأن فى نشأة الأضداد . روى عنه ابن سيده أنه قال : "اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ينبغى ألّا يكون قصدا فى الوضع ولا أصلا ، ولكنه من لغات تداخلت ، أو تكون كل لفظة تستعمل لمعنى ، ثم تستعار لشىء ، فتكثر وتغلب وتصير بمنزلة الأصل "(٣) .

---

(١) السيوطى : المزهر ج ١ ، ص ٢٢٨ ، س ٩

(٢) ابن الأنبارى : الأضداد ، ص ٧ ، والسيوطى : المزهر ج ١ ص ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢٣٤ ؛ وانظر كذلك ابن سيده .

(٣) ابن سيده ، المخصص ج ١٣ ص ٢٥٩

. وذهب ابن دَرَسْتوَيه — عند ما أراد أن يعتذر للقليل النادر من ألفاظ الأضداد — إلى أن الحذف والاختصار قد يقعان فى لفظ من الألفاظ ، حتى يشبه لفظا آخر ، فيتأول فيه التضاد لذلك .

وقد حاول المرحوم الشيخ محمد الخضرى بك أن يعلل نشأة الأضداد ، ومن أهم ما ذكره من الأسباب فى ذلك قوله :

١ — أن يكون بين المعنيين معنى يجمعهما ، فتصلح الكلمة لكل منهما ، لذلك المعنى الجامع ، وهذا ما يسمونه الاشتراك المعنوى ، وقد يغفل الناس عن ذلك المعنى الجامع ، فيظنون الكلمة من قبيل المشترك اللفظى ، ومثال ذلك : القرء ، فإنه فى لغة العرب الوقت المعتاد ، فيقولون للحمى قرء : أى دور معتاد . تكون فيه ، وللثريا قرء : أى وقت معتاد تمطر فيه ، وللمرأة قرء : أى وقت تحيض فيه ، ووقت تطهر فيه (١) .

٢ — أن يضع الواضع الكلمة لمسمى ، وعند الإشارة إليه يكون مع المسمى غيره ، فيتلقاهما عنه السامع من غير أن يتبين حقيقة ما وضعت له الكلمة ، فتستعمل فى الشىء ، وفيما كان معه ، وفيهما جميعا ، وربما ينفصلان بعد . وقد يكونان ضدين كما فى نحو جون ، فإنه وضع فى الأول للسحاب ، وفيه الأبيض والأسود ، حتى إذا كان أبيض صرفا أو أسود صرفا فهو " جون "(٢) .

تلك مذاهب علماء العرب فى أصل الأضداد ونشأتها . ونحن عندما ننظر فيها على الترتيب نظرة الفاحص المدقق نجد أن بعضها مما يسهل رده ، كما أننا نجد الاقتصار على مذهب واحد — من بعضها الآخر الذى نسلم به — فى تفسير أصل الأضداد كلها : أمر يبعد احتماله .

---

(١) الخضرى فى الأصول ص ١٧٤

(٢) الخضرى فى الأصول ، ص ١٧٤ — ١٧٥

فنحن نرد مذهب ابن فارس فى قوله : إن من طبيعة العرب أن يطلقوا لفظا واحدا على المعنيين المتضادين ؛ لأن الأصل أن كل لفظ إنما يعبر عن معنى بعينه ، ولا يجوز أن نأخذ بمذهب ابن فارس إلا إذا أخذنا بمذهب بعض علماء الاجتماع الذين يذهبون إلى أن الشعوب فى أول نشأتها تبدو كأنها فى دور طفولة ، فكما أن الطفل قد يعبر بحرف واحد عن عدة معان، فكذلك الأمم فى طور سذاجتها ، ولكننا لا نذهب هذا المذهب .

أما المذهب الثانى الذى يرد الأضداد إلى لغات مختلفة، فمذهب تؤيده الشواهد الكثيرة . " قال أبو عبيدة فى باب الأضداد من كتاب الغريب المصنف : سمعت أبا زيد بن أوس الأنصارى يقول ... السدفة (فى لغة تميم) : الظلمة ، والسدفة (فى لغة قيس) : الضوء ... وقال : لمقت الشيء ألمقه لمقا . إذا كتبته (فى لغة بنى عقيل) وسائر قيس يقولون : " لمقته : محوته " (١) .

و " قال الأزدى ... خرج رجل من بنى كلاب أو من سائر بنى عامر بن صعصعة إلى ذى جدن، فاطلع إلى سطح والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثب : أى اقعد، فقال : ليعلم الملك أنى سامع مطيع، ثم وثب من السطح . قال الملك . ماشأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ، إن الوثب فى كلام نزار : الطفر ، فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم " (٢) .

وقد نجد فى لغتين من أصل واحد ما يكون سببا للاختلاف الذى قد يتضمن من بعض الوجوه نوعا من التضاد ، مثل " لحم " فتطلق بالعبرية على الخبز من مادة نباتية ، وفى العربية على مادة حيوانية . وتأويل ذلك أن غذاء القبائل الأولى : قبائل العبرانيين (وهم من أهل الزراعة) غلب عليه النبات ، على حين غلب الحيوان فى غذاء العرب ، وهم أهل بادية رحل، ورعاة أنعام .

---

(١) السيوطى فى المزهر ج ١ ص ٢٣٠

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٤

ونقبل كذلك مذهب أبى على الفارسى الذى يرد الأضداد فى نشأتهـا إلى "الاستعارة"؛ لأن الاستعارة قد اعتمدت عليها كل اللغات فى تطورها ونمو ألفاظها ومعانيها: علمية وغير علمية. فكثيرا ما يستعار لفظ — كان يدل على معنى — لمعنى آخر، وقد يكون هذا المعنى الآخر يخالف أو يضاد، وشواهـد الاستعارة كثيرة فى مختلف اللغات، فلا حاجة بنا إلى ذكرها.

ونرجح كذلك رأى ابن درستوريه، فكثيرا ما يكون الحذف والاختصـار والقلب والنحت سببا فى إيجاد بعض ألفاظ من العسير أن نوفق إلى أصلها، وقد يكون من هذه الألفاظ بعض الأضداد.

وممن حاول تعليل نشأة الأضداد من المستشرقين: العلامة جيز (Giese) فذهب إلى أنها قد تعلل بأمور أهمها:

(١) أن يكون أحد المعنيين نتيجة الآخر، كما إذا استعمل "خنى" البرق بمعنى ظهر لحظـة، وبمعنى استتر. فالبرق حين يظهر يخفى، وحين يخفى يظهر. ومثل "ناء" ومعناها ينهض بالحمل بمشقة، ويحمل الحمل

(٢) وأن يرجع أحد المعنيين لمعنى ثالث فى لغة نسيبة، كلفظ "جلل" للشىء العظيم، والشىء الصغير الهين، قال امرؤ القيس:

أرقت لبرق بليل أهلّ يضيء سناه بأعلى الجبـــل

بقتل بنى أســـد ربهم ألا كل شىء سواه (جَلَل)

(جلل) أى هين يسـير. ويرجع المعنيان إلى المعنى الأصلى للفعل (جلل) فى اللغة العبرية، وهو بمعنى دحج: ولا يخفى أن الشىء المدحرج قد يكون ثقيلا عظيما، كحجر من الأحجار، أو خفيفا صغيرا، كالغبار الذى تثيره الريح.

(٣) ويؤول "جيز" الأضداد كذلك بعدم قابلية التأثرات والانفعالات للضبط المحدود، فقد تؤثر الرائحة فى النفوس تأثيرا مختلفا لا يبعد أن يشعر هذا الخلاف

بالتضـاد أحيانا ، كما لو قيـل " ذفر " للرائحة الطيبة ، والرائحـة المنتنة ، وكما لو قيل " راع " وكان هذا الانفعال الذى عبر عنه بهذا اللفظ يشعر باحترام يمت الى الفزع والخوف .

(٤) وقد تتداخل الأحداث ، فما كان آخراً لأمر قد يكون أولا لغيره ، وما يكون أولا لأمر قد يكون آخرا لغيره ، مثال ذلك : "سُرُر" الشهر : أوائله ، أو أواخره ، والأصل فى السِّرار : ما يصل بين الشهر السابق والشهر اللاحق . و " السّدفة " حالة بين النور والظلمة ، فقد تقال للظلمة ، وقد تقال للنور ، وقد تحد ما بينهما ، ومن ثم يحدث التضاد ، وتختلف القبائل فى تحديد معنى هذا اللفظ .

(٥) التباس نسبة فعل من الأفعال إلى فاعله أو قائله ، مثل باع واشترى فمعناهما فى الأصل واحد ، وهو المبادلة المجردة ، وقد كان البيع والشراء فيما قبل بتبادل الأشـياء ، فالبائع شار ، والشارى بائع ، وكلاهمـا بائع وشار ، لتلازم الأمرين فى التبادل .

وإنى أضيف إلى ذلك أمثلة مما يستخدم فى حياتنا اليومية قـد تزيد وضوحا على ما قيل فى الأضداد ، فقد نستخدم لفظا واحدا لشىء يؤدى معنيين متضادين فنقول صعدنا " بالمصعد " لندل على الآلة المعروفة نصعد بها إلى طبقات الدور ، ونقول هبطنا بالمصعد ، فهو إذا آلة تفيد الهبوط .

ومثال آخر يجرى فى لغتنا الحالية بالنسـبة لفتح القناطر وإقفالهـا ، فيقال " فتحت القنطرة " فيفهم أنهـا أقفلت فى وجه المـارة ، وفتحت للمراكب التى تجتاز ناحية من المـاء إلى ناحية أخرى . وحين يقال " أقفلت القنطرة " قد يفهم أنها فتحت لمن يجتازها من الناس ، وأقفلت بالنسبة للسفن ، أو عكس ذلك . وهذا مثال فى اللبس قد يتأول به حدوث الأضداد .

فاذا أضفنا أيضا ما يستخدمه الذوق فى التفاؤل كقولهم " فلان فى عافية " ويُقصد بذلك أنه مريض ، وكقولهم "المفازة" : للمكان الذى تغلب فيه الهلكة ،

وقولنا "خذ الملآن" تعبيرا عن الإناء الفارغ ، بعـــدا عما فى الفارغ من لفظة يا باها الظرف عند بعض الناس ، وكذلك ما نقوله فى التهكم ، وهو نزعة طبيعية فى النفس ، كما يطلق لفظ "العاقل" على الأحمق ، فقد نجد من هذه المجموعة ما يعلل لنا وجود ألفاظ الأضداد فى لغة من اللغات وجودا تدعو إليه طبيعة الأشياء .

فيمثل ما تقدم من القواعد يعلل وجود القليل من الألفاظ ، ونعتبره طبيعيا للأسباب التى دعت إلى ظهوره فى اللغة .

و يصح ألا ننسى كذلك بعض القوانين النفسية فى تداعى المعانى ، وبخاصة قانون التضاد ، حين تمثل صـورة ذهنية مضادة لصورة ذهنية أخرى ، عند ذكر لفظ معبر عن الصورة الأولى . فاذا قدرنا هـذه القوانين ، وقدرنا كذلك بداوة الشعوب فى نشأتها ، وقلة محصولها ، وعدم وفرة الحروف عندها فى بدايات النشأة الاجتماعية ، فقد نجد فى قوانين المعانى ما قد يعلل نشأة بعض الأضداد .

و تكرر القول بأن القواعد التى ذكرناها فى تعليل الأضداد ، لا تصلح إلا لتأويل قليل من الألفاظ لا محيص من الاعتراف بالتضاد فيه . فأما ما عداه فقد اعتبر من الأضداد بكثير من التعسف والتمحل .

٥ — مصير الأضداد

لقد تنبه علماء الفقه إلى باب المشترك وأهميته فى أحكامهم الشرعية. وعندهم أن التشريع هو "العمل بما يدل عليه اللفظ" . والمشترك لا يدل على أحد معنييه بعينه ما لم يكن مصحوبا بقرينة تبينه ، فاذا جاء غير مبين مع أن المراد به أحد معانيه ، كان مجملا بالضرورة . إذ يستحيل العمل بمقتضاه ، لعدم العلم به [1] .

---

(١) الخضرى . الأصول ، ص ١٧٥ — ١٧٦ .

فكأن وقوع المشترك فى لسان الشارع يستوجب القرينة ، التى تفيد معنى من المعانى ، أو بعبارة أخرى : لما كان الشارع يحرص على الإبانة ، فهو لا يحرص على المشترك إلا ومعه ما يبينه ، أو بعبارة أخرى لا يحرص على وقوع المشترك فى أحكامه ما دام هذا المشترك يؤدى إلى الإبهام ، وما دام غير المشترك يؤدى إلى الإبانة .

ولقد منع جمهور الأصوليين عموم المشترك : أى " أن يطلق و يراد منه جميع معانيه ، وهذا منعه جمهور الأصوليين ، وأجازهُ فريق منهم ، واختار آخرون جوازه فى النفى دون الإثبات ، وآخرون جوازه فيما عدا المفرد منه . والمجوِّزون اختلفوا فيه إذا استعمل فى جميع معانيه : أحقيقة أم مجاز[1] ؟

فما تقدم نستخلص أنه لا يحمد وقوع المشترك إلا مع الإبانة ، فاذا كان الأمر كذلك ، كان المعقول فى ألفاظ الأضداد ألا نحرص على استعمالها ، فمصيرها إذاً — على قلتها — أن نخلص منها باتباع ما يأتى :

١ — يجب أن يبحث بدقة عن كل الكلمات التى قيل فيها بالتضاد .

٢ — الكلمات المتضادة تضادا حقيقيا يجب أن تخصص كل كلمة منها بمعنى ، وهو الذى كثر استعمالها فيه ، مثل التلعة للمكان المرتفع ليس غير . وكالجَون فإنّ استعماله فى الأسود غالب . و يقال فى معنى السّدفة : هى ما بين النور والظلمة (كما جاء فى ابن سيده) ولا يقال : السدفة للنور والظلمة .

٣ — أما الكلمات التى جرى التعسف فى عدها من الأضداد ، فيجب على اللغو يين أن يمحصوها ، و يميزوا ما بينها من فروق ، وأن يرجعوا كل لفظ منها إلى معناه الأصلى فى اللغة "

---

(١) الخضرى . الأصول ، ص ١٧٦